

سيرة الزمان

السيطرة على البحر المتوسط

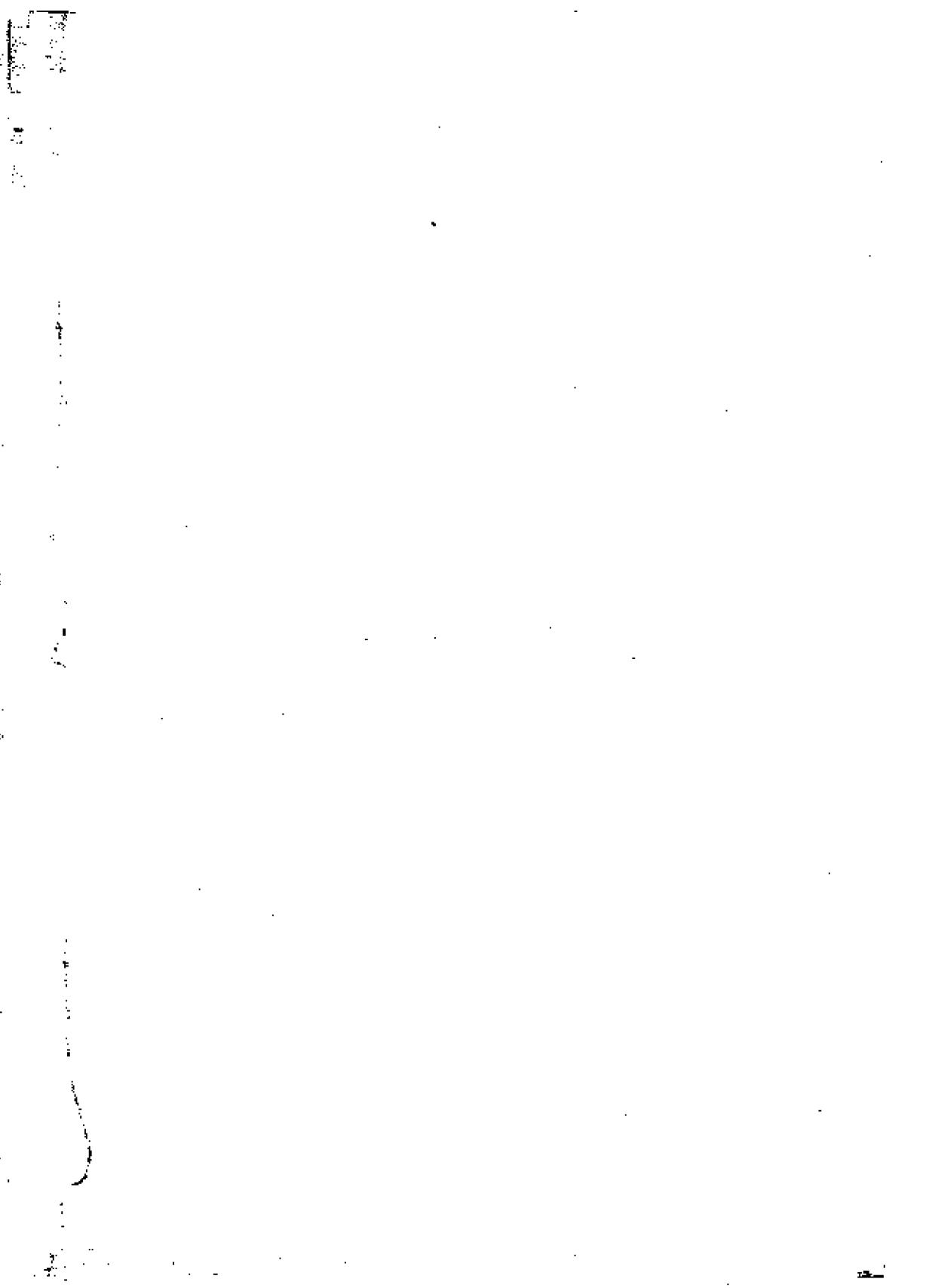
تاريخ المشكلة وأدوارها

للسيود لويجي فديريوني

محمد علي والامبراطورية العثمانية

تدوين سعيد





السيطرة على البحر المتوسط

تاريخ المشكلة وأدوارها (١)

لم تعرف لبحر المتوسط مشكلة ماء قبل ثلاثة قرون ، لان هذا البحر وحده دون غيره كان ملتقى لساحل البلدان التي قامت فيها الحضارات القديمة في هذا الجانب من الكرة الارضية — حضارات مصر وفينيقية وكريت واليونان والرومان وقرطاجنة . فالتاريخ بأسره ، او على الاصح تاريخ هذه البقعة من الارض ، كان يتجه الى البحر المتوسط دون غيره ، ويتتي عنده . واذن يصح القول انه انقضت الالف السنين قبل الترون الوسطى ، كان البحر المتوسط فيها هالماً قائماً بنفسه او كان هو العالم كله . على شواطئه وسواحلها ، قامت دول اثر دول وتماقت الحكام على هذا السلك المحدود بنواطيء القارات الثلاث اوروبا وافريقيا وآسيا . وما نقله لنا التاريخ عن محاولة بعض الشعوب ، كالنيبين ، تسدي حدوده عند اعمدة هرقل (جبل طارق الحديث) طلباً للبدان التي وراءها ، كان في الغالب محاولات فردية بنمذ التجارة لا بقصد السيطرة ، والمعرفة التي جئت من هذه الرحلات طوت في صدور اصحابها . فالوصول الى جزائر كاسيتريدس النية بالمعادن زالت من ذاكرة الانسان بزوال النيبيين . ثم جاء عصر المكتشفات الجغرافية العظيمة ، وهو عهد عجيب من النشاط الانساني ، كان من شأنه نقل محور الحياة الانسانية من موقع الى آخر . قضى الناس حينئذ نحو قرنين من الزمان ، ومسالك الفتح والكسب تفتح امامهم الى آفاق واسعة بعيدة ، وكان يحدوهم حب المغامرة والمخاطرة ، ويسبهم سحر الرغبة في الثروات الطائلة ، يفوزها الفاز من المغامرين . ان الصورة التي رسمها المؤرخون للشرق الاذن في الصور الوسطى ، وقد اجتمعت فيه الحرار والظهور والافويه ، لا يمت على الفتنة من القصص الحديثة عن بلدان تفيض ذهباً ونقطةً . وما دالت دولة الامم البحرية في البحر المتوسط ، على اثر هذه المكتشفات الجغرافية ، حتى تسلت دول الشمال مقاليد السيطرة البحرية ، حتى لقد تجرأ بعضها ان يناجز اساطيل اسبانيا الثيمة التي حافظت بها على سيادتها في البحر المتوسط من جبل طارق الى مضيق سيفا . ومضى قرنان ، دار فيهما النزاع في سبيل انشاء طبقة الامبراطوريات الجديدة ، وكان هذا النزاع في الغالب على متن المحيطات ، على ان البحر المتوسط ، اعمل امراً ، وأصبح في الانقلاب العالمي الجديد ، وكأنه بحيرة لا شأن لها . فلما بلغت مغامرات المغامرين حدّها في اميركا الشمالية وأميركا

(١) من مقال في مجلة « الشؤون الخارجية » لسيدور لويجي فديريوني رئيس سائر الشيوخ الايطالي

البحرية : أجهت أوروبا ثانية . أتى اختراق الحجب المدلة على «إيدان آسيا» وكانت أقرب
 أنسبل إلى آسيا ، تمر بالبحر المتوسط .

قيل في ذلك العصر ، من أدرك هذه الدورة التاريخية التي تقدم وصفها ، ومدى بين الأمم
 من كان له خطة خاصة ونهج معين — مع أن الأدلائل تدل على أن أوليفر كرومويل كان قد
 أدرك نافذ بصيرته سير الحوادث المترقع

فلام في الغالب تسيير إلى اغراض بعيدة مجهولة ، بدافع من فضولها وباعت من رغبتها في
 تحقيق بعض الاغراض القريبة . وكانت انكترا حينئذ ، في عز شبابها الهوسي ، واشد نديلاسيا
 الفاجرة ، فاتمت انكترا بخليط من دافع الفطرة وبعث الكسب القريب ، بان السيد الوحيد
 لهدم سيادة نديتها ، لا يكون إلا بضرها في المركز الحاسم في حياتها ، أي البحر المتوسط .
 وكذلك ترى نشاط انكترا في البحر المتوسط ، مظهر من أهم مظاهر الحياة في تاريخه الحديث .
 فكانت انكترا تنتم كل فرصه وكل عنبر لتمكن نفوتها فيه . وكانت حرب وراثته العرش في
 اسبانيا ، في اواخر القرن فأضيفت خصومة فرنسا إلى خصومة اسبانيا ، ولما حاول الاميران
 روك Rookes الانكليزي ان ينزل جنوده إلى البر في طولون واخفق ، حاول ان يستراخفاقاً بسبل
 يستوقف النظر ، فاحتل صخرة جبل طارق ، وكانت حاميها الاسبانية حينئذ ضيفة لا تقوى على
 المقاومة . وكذلك استطاع الاميران روك وهو لا يعلم ان يكسب لانكترا ، مفتاحاً ، يضع لها طرفاً
 جديدة وآفاقاً جديدة لسياسها البحرية الامبراطورية

ومن انشادر ان نجد في تاريخ الاعمال الحربية ، عملاً كان له من التأثير في تاريخ أوروبا
 الحديث ، ما كان لاحتلال جبل طارق

تاريخ احتلال جبل طارق (٤ أغسطس ١٧٠٤) هو بدء المشكلة المعروفة بشبكة البحر المتوسط
 ورتت انكترا ، باحتلالها جبل طارق ، السيادة على البحر المتوسط ، الطريق الدولي الرئيسي
 ومقر النزاعات الدولية الكبرى . وادركت انكترا قيمة هذا الارث ، فست خلال القرون
 الثلاثة الماضية ، سعيًا متواصلًا إلى المحافظة على هذه السيادة وتمزيقها ، غير مدخرة لذلك ،
 قوة ولا مالا ولا حياء ولا دعاء . ونسكتها في كل عمل عملته لتحقيق هذا الغرض ، وكانت تأثر
 على عملها ستاراً من البواعث الادبية العامة لتسوية

في القرنين السابع عشر والثامن عشر وصف عمل انكترا في البحر المتوسط ، بأنه تم في
 سبيل تحرير الشعوب من استبداد الكاثوليكية الاسبانية . وفي عهد الثورة الفرنسية وحروب
 نپوليون سوتحت عملها بالدفاع عن النظام وبيدًا الملكية في أوروبا . ثم اعلمت في عهد نابليون
 الصدي لحضرون المارد الروسي الاوتوقراطي إلى سواحل بحري إيجه والادرياتيك . وجعلت

عذرها في الحرب الكبرى الكفاح مع النزعة العسكرية. وهي اليوم تنس عملها لئلا يدافع عن النزعة السلمية المتجسمة في جامعة الأمم.

هذه المسوغات الادبية المتباينة، تمحّص لها جانب كبير من الرأي العام البريطاني وطوائف من الرأي العام في سائر الأمم. ولكنها كانت في كل حاله ستاراً تستر به مصالح بريطانيا الامبراطورية وما استاز به الشعب الانكليزي مقدرته على تغيير موقفه السياسي ليلائم الاحوال السائدة. ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر، عمدت انكلترا الى انشاء تحالفات بين الدول في سبيل تعزيز سيادتها في البحر المتوسط، بل وفي العالم. فلما كان نظام توازن القوى النظام الذي ساد أوروبا في القرن التاسع عشر، عمدت الى خطة المزاولة والاحتفاظ بأسطول يساوي في قوته أسطول أية دولتين من دول أوروبا. وفي العقد الاول من هذا القرن اعتمدت على التحالفات الدفاعية، ثم لما وضعت الحرب أوزارها لاذت بذكورة التعاون الدولي عن طريق الجامعة، لان الجامعة في نظر الطبقة الحاكمة في انكلترا، تجمع بين اكبر قسط من الفائدة في تأييد مقامهم وأيسر قسط من الخطر، علاوة على انها تتفق مع النزعة الادبية البروتستانتية في ان الجامعة ملاذ العدل الدولي وموثقه.

ف تاريخ انكلترا في البحر المتوسط يمكن ان ينقسم الى اربعة ادوار:

- ١ — هدم سيادة الدول الاخرى عليه
- ٢ — الجيولة دون سيادة دولة جديدة
- ٣ — انشاء امبراطورية استعمارية لبريطانية قاعدتها البحر المتوسط
- ٤ — المحافظة على مقامها الامبراطوري المتفوق وتميزه

فالدور الاول بدأ يوم اقبلت انكلترا على البحر المتوسط لتاجز فيه اسبانيا وفرنسا في عفر دارها، فلما وضعت معاهدة اوترخت كانت نتيجةها تغيير التوازن الاوربي في صالح تحرق بريطانيا البحري في البحر المتوسط، وكان من اثر ذلك تقويتها عليهما في المحيط الاطلنطي كذلك اما في الدور الثاني فقد سمت انكلترا الى القضاء على كل عمل فيه تهديد لسيادتها في البحر المتوسط بل ولا امبراطوريتها الاسيوية التي كانت في دور التكوين حينئذ. فوجه النزاع اولاً الى مطامع نيولون الشرقية ثم الى مساعي الملكية الفرنسية بيد نيولون اذ حاولت احياء خطتها القديمة بالاستيلاء على شمال افريقية. فحطت نيولون الى مصر كان الفرض منها تهديد الهند وهي حينئذ قلب الامبراطورية البريطانية الجديدة. وس ذلك الوقت اصبح الهند والبحر المتوسط حلقين لا انفصام لهما في سياسة بريطانيا. ولكن موقعي ابوتير والطرف الاخر قضا على حلم نيولون. ثم حاول الملك شارل العاشر ان يمت خطه فرنسا القديمة في البحر المتوسط باحتلال

الجزائر ولكن ثورة بوليف سنة ١٨٣٠ وهي ثورة يرجح أنه كان الإنكليز صريح في إزالتها كانت دون نجاح منذ لحظة النجاح السريع واستمر الصراع بين بريطانيا وفرنسا أما في ربح النهار وآأ خلف سائر: أنى ان سوتى في الإتحاد التي عقدت بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٥

وكان كفاح بريطانيا ضد استيلاء روبا على الإستانة والمضائق اشدا من كفاح ضد فرنسا ، فالاستيلاء على الإستانة يكمل لروبا نظاماً ديبياً اتنولوجياً والاستيلاء على المضائق يفتح لها منفذاً على البحر المتوسط . وليت حرب الضريم الأ نتيجة من نتائج هذا النزاع على البحر المتوسط . وقد أسفر هذا الدور من النزاع عن انشاء قاعدة بحرية في سلطة واقبال المضائق في وجه الاسطول الروسي واحتلال بعض الجزائر الايونية ثم التنازل عنها لليونان هدية الى اسرتها المائكة الجديدة الدماركية الأصل

واستدأ الدور الثالث الى ما بعد الحرب الكبرى واهم مميزاته الاحتلال تركيا وفتح قناة السويس . وفي خلاله بسطت انكلترا نفوذها فضم البصة الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الأسود والمحيط الهندي وهي البصة التي تفصل بين أوروبا والهند

استملت انكلترا مصر ، ملقى لطريقي المواصلات بين القاهرة ومدينة الكاب ، وبين بورسعيد وسلايا . وعلى ذلك أصبح البحر المتوسط النقطة العصبية الرئيسية ، من الناحية السياسية والعسكرية ، للامبراطورية البريطانية قاطبة . فسار الاستثمار البريطاني مخترفاً محاري إفريقية وحراجيا وأدغالها من الشمال الى الجنوب وس الجنوب الى الشمال ، معتمداً في ذلك على خبرة من أعينهم الأمة البريطانية . وكان الاحتلال يتبع الاستكشاف الجغرافي . وما لبث ان اصحت محطات التجارة التي انشأها التجار على سواحل المحيط الهندي عواصم مستعمرات جديدة . فلما انتهت حرب السودان وحرب البور كانت قدم انكلترا قد رسخت في طرفي الخط الواصل بين القاهرة ومدينة الكاب . وبقيت بضع حلقات في هذه السلسلة لم يتول عليها البريطانيون إلا بعد الحرب الكبرى ، وهي مستعمرات المانيا سابقاً التي عهدت جامعة الأمم في الاتداب عليها لبريطانيا

وقد اصطدمت بريطانيا في خلال تحقيق ككل هذا فرنسا في فشوده ثم ازيل اثر هذا التعادم في الاتفاق الذي عقد بينهما على اقسام افريقية اقساماً لبياً فاعترف لانكلترا بتفوق مصالحها في شرق افريقيا وفرنسا بتفوق مصالحها في غربها فكفمت بريطانيا يدها عن مراكن وكفمت فرنسا يدها عن مصر

وكذلك تم الاتفاق الوددي بين فرنسا وانكلترا وغرصة انقضاء على النزعة الالمانية الامبريالية في مهدها وتبديد خطرها على طرق المواصلات بين أوروبا وآسيا وبالقوة في الاستعداد لمنع الروس

من الوصول الى البحر المتوسط عن طريق الاسكندرونة احتلت انكلترا في سنة ١٨٧٨ جزيرة قبرص، ولكن روسيا لم تثبت ان بدأت قواها في سواحل منشوريا في حربها مع اليابان . وبعد الثورة البولشفية وقيام حكومة السوفيت فيها ، زالت روسيا كدامل فعال في اتزان الدوائر حول البحر المتوسط . الا ان انجاء ألمانيا الى بنداد قيل الحرب الكبرى ، كانت اكبر خطر اعلى مواصلات بريطانيا في البحر الاحمر من عمل اية دولة اخرى . فحالت الحرب الكبرى وقضت عليه . ومع ذلك عازمت انكلترا ان تمشي طريقاً رية من البحر المتوسط الى المحيط الهندي ، ومكثها معاهدة سيتر من ذلك

ولكن حساب الحقل لم يأت موافقاً لحساب اليدر (الجرن) فانها اتزعت ازمير والمنطقة المحيطة بها من نطاق نفوذ ايطاليا بعد ما وعدت بها ايطاليا في اتفاق « سان جان مورين » وعهدت بها الى اليونان . ولكن الأتراك بزامة مصطنع كحل قلبوا الحطة التي وضتها انكلترا وظننت انها اصابت النجاح في وضها ، واستولوا على ازمير وطردوا اليونان من الاناضول الا ان هذا الانقلاب لم يكن باعثاً على قنوط انكلترا . فلما عقدت معاهدة لوزان رأيت انكلترا ان تشمل البلدان العربية الخاضعة لانتدابها في سيل هذا الفرض الامبراطوري . فبعد الى الدول العربية في حياية طريق المواصلات البري بين البحر المتوسط وخليج فارس . وكانت فلسطين مبدأ الحط ، لانها تصلح ان تحل محل مصر اذا اقتضت الحال ذلك . فتقاة السويس يمكن الدفاع عنها من الغرب ، اي من مصر ، كما يمكن الدفاع عنها من الشرق اي من فلسطين . حتى اذا فقدت انكلترا السيطرة على القتال ، فالعقبة فحل محل السويس وحيثما تصلح لان تكون قاعدة بحرية ومرافقاً يصدر منه قنط الموصل . ثم ان انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين يمكن ان يستعمل لاغراض سياسية في زرع بزور الشقاق بين مسلمي فلسطين وسببها . وقيام اعادة شرق الاردن يفصل فلسطين عن الكتلة العربية في الجزيرة وما وراءها . وقد بلغ من نجاح سياسة انكلترا في المراق انها لم تمنع في الاعتراف باستقلاله

وهذا يضي بنا الى الدور الرابع ، وهو الدور الذي تسعى فيه انكلترا ، الى ترسيخ سيطرتها على البحر المتوسط قعدة بانها الامبراطوري . ولكن لندن ترى ان العوامل التي تستطيع ان ترزع اركان « السلام البريطاني » في البحر المتوسط ثلاثة هي النزعة القومية المصرية ، ونهوض تركيا ، وقيام ايطاليا الفاشية . وبعد ما اشار الكاتب الى الساملين الاولين في وضع عبارات ، افاض في اسرار النزاع بين ايطاليا وبريطانيا ، وهو بحث اقرب الى سياسة المناقشة منه الى تاريخ السياسة لذلك اكتفينا من مقاله بما تقدم

محمد علي والامبراطورية العصرية^(١)

لدمين سعيد

لم يكن الذين دونوا تاريخ محمد علي من الجانب والترك أو المصريين يبحث هذه الناحية من تاريخه فكتفى الأولون بذكر سيرته ، ووصف بطولته ، واصلاحاته ، وعي الآخرون بشويه صورته ، والاتفاص من قبة عمله ، اما المصريون فدرسوا تاريخه من الناحية الاقلية الخاصة بمصر وحدها وبين ايدينا الآن كتابان حديثان اولهما تاريخ الحركة القومية بمصر للاستاذ عبد الرحمن الراضي والثاني الامبراطورية المصرية للدكتور محمد صبري وقد حاول كل منهما ان يصنع الحركة بانصبة المصرية المحلية من دون ان يعنى بدرس الناحية العربية منها مع ان في كتابيها كثيراً من النصوص والمذكرات والوثائق السياسية التي تثبت ان محمد علي وابنه ابراهيم كانا بسلان لانشاء امبراطورية عربية تضم الانتظار المشددة من حدود الجزائر غرباً حتى ديار بكر وخليج فارس شرقاً ومن جبال طوروس شمالاً حتى اواسط افريقية جنوباً وبذلك تدخل في دائرتها جميع الانتظار التي ينطق ابناءؤها بالضاد وهي الجزائر وتونس وطرابلس المغرب وبرقة ونصر والسودان والشام والعراق وخليج فارس ونجد والحجاز واليمن ولا يبقى في خارجها سوى المغرب الاقصى لانه كان خارجاً عن نطاق الامبراطورية العثمانية وهو القطر العربي الوحيد الذي لم يخضع للاحتلال السلياني ولم يفقد استقلاله

ولقد عثينا في هذا انفصل باثبات الوثائق والمراسلات السياسية والمذكرات والاقوال التي عثرنا عليها في بطون الكتب التي نشرت عن محمد علي و ابراهيم مما له صلة ببحث الامبراطورية العربية وسببين القاريء منها ان هذين البطلين العظيمين سعي لانشاء امبراطورية عربية تكون القاهرة عاصمة لها تهض بالمغرب ونجد ومفاخرهم ، وتبني لهم سبل التقدم فيهبوا من الهوة السحيقة التي اوصلهم اليها الحكم التركي ويلحفوا بالامم الاوربية في نحوها ورفها وكانت نهضة اوربا حينئذ في ابتداء اشراقها

لما جاءت الاخبار الى القاهرة باستيلاء ابراهيم باشا على دمشق وزحفه الى حلب استأجر محمد علي باشا سفينة فرنسية لتحمل منه رسالتين الاولى الى حاكم مالطة الانكليزي والاخري من قنصل فرنسا بمصر الى حكومته . وهذا ماجاء في رسالة القنصل الى السيوسينياني وزير خارجية فرنسا يومئذ قال :

« ان محمد علي لم يستأجر السفينة الفرنسية لتحمل الى مرسيلا ومنها الى اوربا خبر فتح

(١) من فصل من كتاب « الثورة العربية المتحدة : الجزء الاول » تأليف امين سيد

دشق ولكنه استأجرها لتحمل سنة رسالة الى الحكومة الانكليزية بواسطة حاكم مملكة لاهور لا يثق بالقتل الانكليزي بمصر ويعتقد أنه يتلاعب بالاعراب عن افكاره وآرائه
 « ولم يلغني رسالة مكتوبة ولكنه امل على افكاره التي يزيدت بمرضها على وزير الخارجية وهي :

« يرى محمد علي ان تركيا واحدة حتماً الى ازمة من الازمات الكبيرة التي يقرر بها مصير الامم والدول . وأنه يتم الآن الانفصال بين شطرين من السلطة تقضي الحوادث والانظمة والضرورة والافذار بفصل احدهما عن الآخر (يريد انفصال بلاد التورك عن بلاد العرب)
 « وكان في الاسكان تلافي ذلك لولا غفلة السلطان لان محمد علي كان يود دائماً — على الرغم من انفصال احد الشطرين عن الآخر بالفعل والواقع — ان يظل التابع الخاضع الخاضع ولكن الصاية ارادت غير ما اراد فالآن قد تم انشاء المملكة العربية . والبلاد العربية هي مهبط الرحي وهي تحضن الاماكن المقدسة وفيها مقر الخلافة وتطوقها الحيطان من كل جانب كالاسوار ، واذا اضطرت للدفاع عن نفسها انشأت القلاع والحصون التي يتضاعف عددها

« واليوم ينتظر ان يرغمي السلطان وجيشه على اسطول محمد علي وجيشه فيكون مصير اسطول السلطان وجيشه الحق فسادا يسر هذا القتال الذي لا فائدة منه ؟ واي امة اوربية تجد فيه ربحها ؟ فلا هي فرنسا ولا هي انكلترا ولا النمسا ذاتها وذلك للاسباب التي يعرفها الجميع ولا يجهلها احد
 « والدولة الوحيدة التي يهبطها سقوط العمولة الثمانية هي روسيا ويقوم الدليل على ذلك بدفعها الباب العالي بكتبا يندبها ضد محمد علي مع اعلان القضب والسخط عليه وتمنكت الغفلة الباب العالي فلا يميل شيئاً الاً بتصيحة روسيا وأوامرها وروسيا تعرف ان مصر صارت قوة وان هذه القوة تزيد عند الحاجة الباب العالي ضدها . وتملك الباب العالي الجئون فانباق لارادتها ضد الشعوب القوي الحي في السلطة ولذلك تريد روسيا ان يمزق بعضنا بعضاً

« فهل تسع فرنسا وانكلترا بأن تحفر السياسة الحادعة هذه الحفرة ليتردى فيها الجهل والباطوة ؟ ان عليهما وحدهما وعلى رأبهما ووساطتهما تتوقف الحليلة دون الدسائس فاذا فلما كان عمالها خدمة للباب العالي ذاته وللسلام والانسانية

« ان محمد علي وان كان اهين فهو لا يطلب — وانصر حليفه — الاً ما كان يطلبه قبل القتال فلا يمتد نظره الى اكثر من الخلق السورية حتى حلب بمصر تحت سيادة السلطان وعلى شروط موافقة للسلطان كل الموافقة . اما اذا ترك قياد السلطان لصديق ما كرفقد تكون النتيجة عليه بلايا شديدة

« وهل من يشك الآن في ان الانتصار في سهول حلب بفضل عبقرية ابراهيم العسكرية ،

وبفضل هورق انجرب وبفضل فوز الاسطول انجزي. سوف يمرر مصير الاستاة «
وفي يوم ٣ فبراير سنة ١٨٣٣ كتب ابراهيم باشا عند وصوله الى كوتاهية في طريقه الى
الاستاة بفوز الى والده : أدنى ان يكون الاستقلال مقدماً على كل شيء في المناقشات التي تدور
بينك وبين الفرنسيين (سورافيف مندوب روسيا وخليل رفعت باشا مندوب الباب العالي)
« فسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شيء ، وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب ان
تطلب اضايا وادنه وجزيرة قبرص وان تضم الى مصر — اذا كان ذلك بالامكان — تونس
وطرابلس ، ذلك اقل ما يجب ان نطلبه ولا تساهل في اي شيء كان مهماً كان الامر لان
مصلحتنا تقضي به

« اما اصرارنا على طلب الاستقلال فلكي نوطد مركزنا ونحوطه بالضمانات فاذا لم تل
الاستقلال ذهبت جميع جهودنا ضائعاً ، ومكتنا تحت يد هذه الحكومة الخيثة التي توفرنا
بمطالبها الدائمة بطلب المال ، فمن الآن يجب ان تخصص من الاعباء الباهظة ولا خلاص
الا بالاستقلال

« والذي يدعوننا لطلب اضايا وادنه هو شدة حاجتنا الى الخشب ، لان مستقبل اسطولنا
معلق على ذلك ، مادامت بلادنا محرومة من الخشب ، وأنت تذكر ان انكترنا منعت اصدار
الخشب لنا فاضطرونا ان نلجأ الى النسا التي ازعجتنا ورفضنا اصداره ازواجاً لا نستطيع لسيانته .
وأما ضم قبرص الى مصر فهو أيضاً لازم لا مندوحة عنه لسببين : الاول لتكون مركزاً لاسطولنا
والثاني لمنع الباب العالي من ان يكون له طريق الى املاكنا واذا شئت ان تطلب بمقداد فلا
مالح من طرح هذه المسألة على ساط البحث »

يقول عبد الرحمن الزانقي في كتابه تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر
في الجزء الثالث ما نصه : « ومن الزاجع الذي تؤيده الحوادث ان مشروع محمد علي كان
يتناول انشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم اليها البلاد العربية في افريقية واسبيا ، في افريقية
قد استقل بمصر وفتح السودان ، وفي اسيا فتح معظم جزيرة العرب ، وبسط عليها نفوذ
الحكومة المصرية ويطوحوه الى سورية اراد ان يؤسس الدولة المصرية الكبرى

ويريد هذه الفكرة رجحاناً تصريحات فاه بها ابراهيم باشا في خلال الحرب السعودية فقد
ذكر المنيو كاديفين وبارد في كتابهما انه بينما كان الحصار مضروباً على عكا سئل ابراهيم باشا
الى اي مدى تصل فتوحاته اذا تم له الاستيلاء على عكا فقال ما مشاه « الى مدى ما يتكلم الناس
واقام وايام باللسان العربي »

وقابل البارون « ليو الكونت » ابراهيم باشا قرب طرسوس سنة ١٨٣٣ بعد عودته من

كوثاميه لخادته حديثاً طويلاً وكتب عنه يقول: «بجاءه إبراهيم باشا علناً بأنه ينوي احياء
ايقومية العربية واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم سواء في الادارة ام في الجيش ،
وان يحسن منهم شعباً مستقلاً ويشركهم في ادارة الشئون المالية ، ويؤدهم سطاته الحكم
كما يتحملون تكاليفه

» وتحملي فكرته هذه في منشوراته ، ومخاطباته لجنوده في الحرب السعودية الاخيرة ، فإنه
لا يفتأ يذكرهم بمخاطر الامة العربية ومجدها الثالث ، ويصل هذا المعنى محاورته بان كل البلدان
العربية يجب ان تضم تحت لواء ابيها . وقد قال لي ان اياه يحكم مصر والسودان وسورية ومن
الواجب ان يضم المراق الى حكمه وان جزيرة العرب تابعة لايه الذي يمسك الان على اعناق فتحها
« وهو في صلاته مع اهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، وبعد نفسه عربياً ، ولذلك لا يترك
يطمن في الترك ، وقد لاحظ عليه ذلك احد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التي كان يشجع رجاله
عليها وسأله كيف يطمئن في الترك وهو منهم فأجابني على الفور ه انا لست تركياً . فاني جئت مصر
صبياً ومنذ ذلك المهد قد مصرتني شمسها وغبرت من دمي حُميلته دماً عربياً ؟»

وفي شهر مارس سنة ١٨٣٣ اي في اثناء الفترة التي كان فيها الجيش المصري يهدد الاساتنة
ارسل محمد علي باشا الى قنصلي انكلترا وفرنسا في مصر الكتاب الآتي :

« انه بما لي من القوة التي استندها من شعي ومن القانون المقدس والفتاوى الشرعية الموجهة
الي من جميع علماء البلاد العربية قد اصبح من واجبي الذي لا محيد عنه ان اوطد اركان حكومي
ومكانة قومي بجميع الوسائل . وما تلك الوسائل سوى الحصول على كل البلدان التي اطلبها وهي
البلاد التي استوليت عليها

» وما اني قد بذلت في سبيل ذلك وقتاً طويلاً وجهوداً جهيدة فمن الواجب على الاقل ان
يتروا لي في هذا الكون شيئاً من الشهرة وان يحملي حب الراجحة على ارتكاب عار التخلي
عن شعي الذي وضع كل ثقته بي ، بل ان سأكون سعيداً بان أموت شريفاً في سبيله . فأرجو
والحالة هذه من دولتي انكلترا وفرنسا ان تتخذوا نحوي قراراً مطابقاً للعدالة والانصاف
ولمصلحهم الخاصة»

وفي يوم ٨ مارس سنة ١٨٣٣ ارسل محمد علي الى البارون روسان سفير فرنسا في الاساتنة
الكتاب الآتي ردّاً على كتابه اليه قال :

« تقون باسعادة السفير في كتابك المؤرخ ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٣ انه لا حق لي بالمطالبة
البلاد عكا والقدس ونابلس وطرابلس الشام وانه لذلك يجب علي ان استرد جنودي حالاً
من البلاد الاخرى وتذري بسوء العاقبة اذا رفضت ذلك . كما ان رسوكت البني شفاعاً وبناء

على التعليلات التي زودته بها أي: إذا بنيت مصرًا على القسك بمطالي فإن الاسطونين الانكليزي والفرنسي يتظاهران امام الشاطيء المصري

« فأني حق يجوز لك يا سعادة السفير ان تعمل على تحريردي بما غنسته ؟ ان شعبي بأسره يعضدن به ولو شئت فناديت افرزميين والاناصوليين الى الثورة ولو شئت لأحدثت حدثاً عظيماً في تركيا بمساعدة الشعب المهابي

« ومع أني اصبر على ولايات عديدة وانصر حلفي فقد اكتفيت بأخذ سورية التي اتيم فيها بقوة السلاح ومساعدة الرأي العام ، وأوقفت جندي عن التقدم ولا قصد لي سوى عدم ارافقة دم انترك عبثاً وعدم اغضاب دون أوروبا فكانت المكافأة على هذا وعلى الضحايا العظيمة التي قدمها شعبي الذي مكنتي مساعدته الثمالة من الحصول على انتصارات باهرة ، ان أطالب الآن بالتخلي عن البلاد التي استوليت عليها وان استرجع جيشي الى منطقة صغيرة يسونها باشاوية الأتروون بذلك انكم تصدرون على الحكم بالموت السياسي ، ان لي وطيذ الامل بأن فرنسا وانكلترا لا تأييان معاملتي بالانصاف والاعتراف بمالي من الحقوق ان شرفها يقضي بذلك «
« ما اذا كنت مخدوعاً فيما املت فاني سأطبع قضاء الله لا غير وسأفضل الموت على احتمال الضيم وسأقدم نفسي بكل ابتهاج فدي لمصلحة قومي ، وأشعر بأنني سعيد بأن اخدمهم حتى اغيب في لحدي . هذا هو قراري الذي وطلت النفس عليه «

وفي تلك الفترة كتب اللورد پامستون وزير خارجية انكلترا الى السير ويليام كامبل سفير انكلترا في كابل يقول :

« ان الشروط المعروضة على محمد علي باشا حسنة جداً (يريد بها الشروط الخاصة باعطاءه ولاية عكا) ما دامت تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق الى العراق . وفوق هذا يجب ان يثبت كل سنة في ما اعطى له وان كان تشيئه في مصر دائماً

« لقد كان محمد علي يرمي الى تأليف مملكة عربية تجمع بلاد العرب والشروع جيل الشأن بذاته لولا انه يقضي بتقسيم تركيا وهذا لا يمكننا ان نعلم به فتزكيا هي افضل دولة تملك طريق الهند وهي خير من أي ملك عربي يقوم على هذه البلاد ويكون زراعاً للعمل كثير الحركة

« وأنواجب علينا ان نساعد السلطان في اعادة تنظيم جيشه واسطوله وماليته ، فإذا استطاع ان يعيد النظام الى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء «

وكتب بوغوص بك نوبار الذي كان يتولى ادارة ديوان الخارجية في حكومة محمد علي الى قنصل النمسا بمصر في سنة ١٨٣٤ يقول .

« لاشك أنك عرفت الميول العدائية التي اظهرها الباب العالي حديثاً ضد مصر فهو يجمع

منذ بضعة شهور بدون سبب ظاهر حيثما ضحك في سوا من بقيادة انصدر الاعظم رشيد باشا مع ان سموه (اي محمد علي) ارسل مندوبه لانهام للمباحث بشأن الخيرية التي تدفع وبشأن الجلاء عن ارضه التي امر ابراهيم باشا باحتلالها مؤقتاً ليصد بعض النوائيم البدوية المتردة. وفي خلال ذلك اخذ الباب العالي يوزع الاموان بواسطة عبد الله باشا والي عكا السابق لاثارة الفتن والتوراث في جبل نابلس وخيل ارحمن والقدس وقد عمت التوراث تلك الجهات وتطلب اخادها مجهوداً استمر ثلاثة اسابيع

« ولما وصل الى محمد علي خبر هذه الحركات الدائمة ابلغ قنصل الدول انه قد يرى نفسه مضطراً للاعلان استقلاله لان الباب العالي لا يرضيه سوى هدمه سياسياً والجميع يعرفون ان سموه لم يطلب في حين من الاحيان استقلالاً ، والتفرقة التامة الدائمة بين الوطنين العرب والتركي هو الضمان الوحيد العام من النتائج المهلكة من جراء حرب اهنية ومن غزوة اجنبية »
« واذا اعترف باستقلال سموه فانه يستطيع بعد هذا الاعتراف ان يحرص همه في تنظيم ماليته وفي حشد ١٥٠ الف جندي منظمة تنظيمياً كاملاً فيتمكن من القيام بالمهمة الكبرى وهي انقاذ تركيا من روسيا »

ولما اطلع مترنيخ (وزير خارجية النمسا بومشتر) على هذا الكتاب كتب الى سفيره في بطرسبرج يقول : انا لمنتجج من اعتراف محمد علي انه يريد امرين : استقلاله التام عن الباب العالي وانشاء الدولة العربية »

وفي ٦ فبراير سنة ١٨٣٣ كتب الكولونيل تايلور قنصل انكلترا في بغداد يقول : « ان هذه الولاية (ولاية بغداد) هي الآن في اشد حالات اليأس والضيق نحت حكم علي باشا الذي كان قبل مجيئه الى بغداد وانياً على حلب

« ان انظار الشعب العربي متجهة في هذه الفترة نحو ابراهيم باشا وهو عجب »
وفي ١٦ يوليو سنة ١٨٣٣ كتب المربروكسي اوستن معتمد النمسا بصر الى الكونت مترنيخ يقول :
« ان اسباباً عديدة تثبت ان فكرة تأليف الامبراطورية العربية لا تزال حية ولا تزال موجودة ، وليكن ادرى الى جانب العقل المدبر ، عقل محمد علي ، المطامع الواسعة والهمة العالية في صدر ولده وخليفته ، قابراهيم باشا ابن هذا الصغر وقد تربى تربية عسكرية عالية وتمزه عقله عن الانطباع على الخضوع لتسلطان حكم ابيادىه الدينية

« وارى الى جانب ضعف الباب العالي وهزاله حيثما عريياً قوياً مرة على احدث مادي ، القتال ، وارى اسطولاً قوياً ، وكلا الجيش والاسطول يسهل مضاعفهما . اضف الى هذا كله بقظة الروح العربية بعد سباتها لمحمد علي يتسع بحسن السعة والصيت في جميع البلاد العربية »

وعزوا في مخطوطات وزارة الخارجية البريطانية على تقرير قدم الى محمد علي بن سنة ١٨٣٣ و ١٨٣٣ عن انشاء الامبراطورية العربية هذا نصه :

« ان اسدق ترتيب وافضل تنظيم هو ان تؤلف المملكة العربية من مصر وبلاد التوبة وسنار ودارفور وكرديفان في افريقية ومن بلاد العرب كلها حتى الخليج الفارسي ومن الشاطئ الشرقي لنهر الفرات مع دخول سورية في هذه المنطقة

« فاذا تم ذلك يحكم العالم العربي كما يحى الأثر للخلافة الاسلامية وللخلفاء الراشدين وكما يحى الرجل الذي ارسله الله لاقاد الاسلام، وينظر انه كن عربي كقبة لآمانيه وآماله
« وهذه الروح الدينية والسياسية قد تحولت اليكم، وهذا شريف مكة هو اول المعجيين بقوتكم وعظمتكم والرأي العام يؤيدكم بأصدق امانية ودعائه ولا ريب ولا شك في افضلية وسائلكم على ما عند الباب العالي

« وينبغي ان يرض يجب البدء بمفاوضة اعيان بغداد وزعماء الشعب على الشاطئ الشرقي للفرات . ولا يعارض الانكليز في التقرب من شيوخ الخليج الفارسي وتستطيعون حماية التجارة والصناعة والدين في تلك البلاد بفضل قوتكم— ونحن نتق بقرب حلول نكبة في استانبول، فأنتظروا وفرنسا لا تستطيعان الحيلولة دون ذلك والنسار وروسيا لا تريدان هذه الحيلولة ومن ذلك تكون خطتكم الدفاع تندع تركيا اوربا وشانها وما هو واقع وراء جبال طوروس لما تقرره اوربا . ولما كان الباب العالي سيحاول ان يسترد سورية فان من الواجب عليكم العمل السريع

« وتمتص جيشكم في انشاء الآن معدات الدفاع فهو يحتاج الى ٢٠ بطارية وقرتين مهندسين و ٣٠٠ مستحق وعدد كاف من الاطباء وان يكون عدد الجيش السائل ١٣٠ الفاً ماعدا الرمان المتطوعين والواجب الضحك بصدقة رشيد باشا والولاية الآخريين »

وكتب المستر فاروق فيصل انكترا في دمشق سنة ١٨٣٥ الى وزارة خارجية دولته— حينها اراد ابراهيم باشا احتلال يره جك عنى الفرات يقول « ان هذا الاحتلال يحمل لمحمد علي النفوذ الكبير في بلاد العراق، واذا وصل العراق بدمشق بمرايط عسكرية فانه يضع لجاناً يلحم به بين القبائل . وارسل اللورد بامرستون وزير خارجية انكترا الى الكولونيل كامبل يوم ٨ ديسمبر سنة ١٨٣٨ المذكورة الآتية لا بلاغها الى محمد علي وهذا نصها :

« أكلتك ان تبلغ محمد علي باشا بأن حكومة جلالة الملكة تلتفت تقارير عن حركات الجنود المصرية في سورية وبلاد العرب وهي تدل على انه ينوي ان يسطر سلطة مصر الى جهة خليج فارس وولاية بغداد فابطلع الباشا بكل صراحة ان الحكومة الانكليزية لا تستطيع ان تنظر دون اكرثات الى تنفيذ مثل هذه الشروط »